

## جمهورية الأمير، في رثاء متأخر لنقولا ناصيف

١٥/١٠/٢٠٠٧

العثمانية، انضم إليه (مكروها)، حتى إذا هزمه التكتل الغربي - الشرقي ضده (بريطانيا - فرنسا - النمسا وحتى روسيا)، كان على أمير الجبل أن يرحل عن البلاد تاركاً أيهاها تفغوض في دمايتها نتيجة حرب أهلية متعددة مصادر التحريض.

ولقد ذهب نقولا ناصيف مع فؤاد شهاب في رحلة طويلة بدأت بمولده في بيت فقير في جونية بكسروان ولأسرة فقدت عائلتها فتكفل بها الأخوال من مشايخ آل حبيش، حتى تلقىه شيئاً من الدراسة، قبل أن يلتحق بنواة «جيش الشرق» الذي بدأ الفرنسيون بتشكيله في بطن جيشهم حتى إذا خان موعد إجلائهم عن لبنان سمحوا للجيش اللبناني بالحياة وتركوا قيادته للضابط، (الآن) فؤاد شهاب.

القائد الذي بدأ يتجسماً كان قد تعرف خلال خدمته العسكرية على صببية فرنسية ستكون زوجته ورفيقته إلى الأبد، بعد قصة حب ضاربت حياتهما الهائتة برغم أنهما لم يرققا بأولاد. وكانت في طباعها مظه، لا تهرما المظاهر وتكتفي بما يقيم الأود، ولا تهتم بالرياش الفخمة ولا تحب القصور، وليست شغوفة بالاجتماعيات ومقتضياتها المنهكة.

وتشاء الأقدار أن تهتز دولة الاستقلال بعد سنوات قليلة على الاعلان عن قيامها حين أقدم رئيسها على التحضير لتجديد ولايته، والتزوير بين أدوات التحضير.

ولقد خلع بشارة الخوري بعد ثلاث سنوات فقط على التجديد... فانتجحت الاضطراب إلى فؤاد شهاب ليكون الخلف، لكنه كان يقرأ جيداً، فأدرك أن ساعته لم تدق بعد، وهكذا فقد وفر الظروف لانتخاب كميل شمعون، زعيم المعارضة آنذاك، رئيساً، لكن هذا السياسي المحكم لم يتعظ بتجربة سلفه، فحاول تجديد رئاسته متحدياً شعبه في الداخل وموجة الاعتراض العربي، المتعاطف على سياسة الانحياز لمشاريع الغرب الاستعمارية (حلف بغداد)...

وهكذا كان حتمياً أن يتم اختيار اللواء - قائد الجيش فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية، خصوصاً أنه كان يحظى بدعم زعامة العرب يومذاك معظلة بجمال عبد الناصر الذي جعلته الوحدة بين مصر وسوريا رئيساً للجمهورية العربية المتحدة.

كانت أحلام فؤاد شهاب عظيمة، بينها أن يبني دولة، وبينها أن يحقق عدالة اجتماعية، وكان لا بد له من أن يصطدم «بأكلة الجبنة» من محترفي السياسة وأرباب المال، ولم يكن مستعداً لأن يقاتل دفاعاً عن حلمه... ربما لهذا احس بعد سنتين أنه لا يمكنه الاستمرار رئيساً فكتب استقالته. لكن النواب اجتمعوا على رفضها أخذين بالاعتبار التأييد الشعبي فضلاً عن وقوف الجيش إلى جانبه، وهكذا بقي فؤاد شهاب رئيساً، وإن كان قد بات له الآن «شركاء» من كبار ضباط جيشه (ولا سيما في المخابرات) ومن المغالين في تأييده من «البكوات» وه «الوجهاء» الذين يقبلون بالأمير رئيساً، لكنهم سيخلفون حتى التصادم على خلافته.

الحكاية طويلة: بدأت كحلم وانتهت بالنسبة للأمير الذي قبل الرئاسة متعاً لحرب أهلية، مثل كابوس، ولذلك رفض أن يجدد... ثم لم يلبث أن كتب بخط يده النعي التاريخي لنظام عاجز عن تطوير ذاته وعن ارضاء طموحات شعبه نتيجة تكالب طبقته السياسية على المغنمات والمناصب ولو عبر الولاء للخارج.

نقولا ناصيف أرع لهذا الحلم بقلم محب، فلم يخف إعجابه بهذا القائد الذي يشكل ظاهرة في الحياة السياسية غيرت قليلاً وحاولت ارساء الأسس لدولة حديثة، لكن غيلان الطائفية والعمال والمصالح والارتباطات مع الخارج لم يلبثوا أن اغتالوها... وكان يديها الحرب الأهلية التي ما تزال نعيش في ظلها السوداء.

ربما رأى البعض في كتاب «جمهورية فؤاد شهاب»، ولا سيما في أيامنا هذه، نعيًا لجمهورية الطائف - الدوحة وما بعدهما... لكن التاريخ سيكتب غير ما يقوله أكلة الجبنة المستمر وجودهم في العهود جميعاً.

التاريخ السياسي عند العرب «صناعة يدوية»، تختلف طبيعته، بالوقائع ذاتها وليس بالاستنتاجات فحسب، باختلاف صناعه، وربما لهذا تختلف صناعاته وفق أهواء كتابه وارتباطاتهم وعواطفهم ومدى الرؤية.

في الغالب الأعم يتم التعامل مع القائم بالأمر من الحكام على أنه «القائد الفذ» أو «المنقذ» أو «بطل الإصلاح»، ولا سيما أن تداول السلطة ديمقراطياً ليس مألوفاً، أو فلنقل أنه ليس قاعدة طبيعية معتمدة... وعلى هذا فلا بد من «معجزة» كي يخرج القائم بالأمر، وبالإستطراد، فمن الميديهي أن يفترض في من يدخل بديلاً أو ورثاً أنه قد اجتزح واحدة من العجائب الخارقة، وبالتالي فمن حقه أن يميز نفسه بمراتب والقباب استثنائية.

في لبنان على وجه التحديد، وتديلاً على سيادة المفاهيم المبتكرة للديموقراطية، فإن الخارج من «القصر الجمهوري»، ولا سيما في حقبة ما قبل «اتفاق الطائف»، أي حينما كانت مصالح «الرئيس» امبراطورية مطلقة، غالباً ما كان يصنف كرمز للفساد والتفرد والعداء للمطلب الشعبية... أما «الداخل» فهو المجسد الحقيقي لارادة التغيير ولتحقيق العدالة والطموح إلى التقدم وانجاز حلم الديموقراطية!!

الخارج من القصر «مجنون»، متهم في ذمته المالية بداية، ثم في «تفرد»ه بحيث يصور «طاغية»... أما الداخل إليه فيكاد يصور في مستوى «الملمه» أو الرجل المدخر لتحقيق الأمل المنشود!

غالباً ما كان «التغيير» في القصر يتم بوسائل ديموقراطية المظهر، وإن كانت من الهشاشة بحيث لا يمكنها أن تخفي قوى الدعم والاسناد للأطراف السياسية المتصارعة في الشارع الذي غالباً ما كان منقسماً على ذاته، وبالتالي فإن الحكم في الداخل كان يتم عبر اعادة صياغة العلاقة لتحقيق التوازن بين قوى الخارج...

وبطبيعة الحال فإن «الصوت العربي» في الانتخابات الرئاسية في لبنان كان من حق الطرف الأقوى أو تحالف طرفين أو أكثر، خصوصاً أن في الشارع من كان يوسعه أن يسمع فيسمع هذا «الصوت العربي»، الذي يستبطن «تفاهما» مع الأقوى بين الأطراف الدولية ذات النفوذ في المنطقة.

الرئيس الراحل فؤاد شهاب نموذج فريد في بابيه بين الذين تعاقبوا على رئاسة الجمهورية في لبنان، فهو، بداية، أمير من الأسرة الشهابية التي «ورثت» انسابها المعنيين في حكم امارة الجبل، مع الأخذ بالاعتبار أن هذه الأسرة ترجع في انسابها إلى قريش. على أن ذلك لم يمنع المتحدرين من النسب الشريف من أن يتحولوا بمذهبيهم تارة ثم بدينهم كله تارة أخرى، بما يتناسب مع مقتضيات الوصول إلى السلطة، وهكذا فإن في لبنان حتى اليوم شهابيين من السنة (الأصل) وشهابيين دروزاً، وشهابيين موارنة.

فؤاد شهاب المتحدر، بحسب شجرة العائلة، من فرع الأمير بشير الكبير، هو الرئيس الذي شكل علامة فارقة في تاريخ الجمهورية باعتبار أنه حاول التقدم من استقلال الدولة إلى دولة الاستقلال (وهذا أخذ الشعارات الصلحية التي قدم بها عهده)... ولأنه متميز فقد اختاره الزميل نقولا ناصيف موضوعاً لكتابه الممتاز يدقته وشموليته «جمهورية فؤاد شهاب».

واضح أن نقولا ناصيف قد بذل جهداً ملحوظاً امتد إلى تاريخ الأسرة العريقة بتحاولاتها وبدورها السياسي البارز في «امارة جبل لبنان»، بداية، ثم «باستعادتها» الرئاسة الأولى بعد أكثر من مئة سنة على سقوط آخر من حكم باسمها، أو اسقاطه، الأمير بشير الكبير، عبر سلسلة من الانقلابات السياسية والتجوال الطويل بين أحمد باشا الجزائر، والي عكا، ونابليون بونابرت وباشاوات السلطنة، وحروبهم ضد منافسيه الكثر داخل أسرته، ثم منازعته على السلطة في الجبل أساساً، وأبرزهم بشير جنبلاط، ثم في الجنوب، وجهاء العائلات ذات النفوذ، حتى إذا وصلت حملة ابراهيم باشا نجل محمد علي الكبير (حاكم مصر آنذاك) إلى لبنان في طريقه لقتال السلطنة